INTERNATIONAL JOURNAL OF
CREATIVITY AND INNOVATION IN HUMANITIES AND
EDUCATION
VOLUME 4, ISSUE 2, 2021, 88 – 97.

The commercial cities of the Mediterranean world during the Middle Ages

Anass Bousselam

Educational inspector for secondary education - Ministry of National Education - Morocco, and PhD researcher - history major - Faculty of Letters and Human Sciences - Ain Chock -Hassan II University - Casablanca

Abstract:

The article explains - at the beginning - the importance of the topic, its spatial and temporal framework, and its study method. Then, it moves to a review of the most important issues raised by the topic of the Mediterranean commercial cities, whether at the level of origin, characteristics or otherwise, with examples of the most prominent of these cities in the north or south bank (Ceuta, Tangiers, Alexandria, Acre, Tyre, Sidon, Genoa, Venice, Pisa, Constantinople), and finally an inventory of a group of Arabic and non-Arabic writings that dealt with or referred to the subject of the article.

Keywords: commercial cities - Mediterranean - middle Ages.

INTERNATIONAL JOURNAL OF
CREATIVITY AND INNOVATION IN HUMANITIES AND
EDUCATION
VOLUME 4, ISSUE 2, 2021, 88 – 97.

مقدمة

المدينة حقيقة قديمة جدا ومعاصرة لبدء الحضارة، ونجد المدينة القديمة اتخذت أشكالا متعددة، لكنها كلها تتسم بالبساطة، وقد كان ظهور الثورة الحضرية الأولى مرتبطا بالثورة الزراعية أو بعبارة أخرى إن ظهور المدن سبقته ثورة في إنتاج الغذاء، فعندما توفرت ظروف اجتماعية وتقنية سمحت لقطاع الفلاحة بأن يحقق إنتاجا يفوق حاجيات المجتمع، فإن هذا الفائض أصبح يغذي مجموعة من الأفراد في المجتمع واستقرت هذه المجموعة في المدينة للقيام بأعمال أخرى غير الزراعة، وهكذا نلاحظ أن المدينة هي انعكاس على المجال لواقع اقتصادي واجتماعي جديد، وبالتالي فدراسة تاريخ المدينة هي دراسة للتاريخ الحضاري في حد ذاته وهنا تكمن أهمية الموضوع، وأخيرا فالبحث الأكاديمي في هذا الموضوع عموما هو إغناء للتاريخ العالمي للمنطقة المتوسطية.

أولا. أهمية الموضوع وإطاره المجالي والزمني ومنهج دراسته

ترتبط أهمية الموضوع بعدة اعتبارات في مقدمتها أهمية العالم المتوسطي باعتباره مجالا ذا أهمية عالمية وتاريخية وحضارية، ولا يختلف إثنان على كونه أهم مجال في العالم الوسيطي سواء من حيث التبادل التجاري أو الاحتكاك الحضاري والفكري أو الصراع السياسي والعسكري، لذلك كان للمتوسط دور فاصل في تحديد وهيكلة مجموعة من التطورات التي عرفتها المجتمعات المطلة عليه، ومن ضمن هذه التطورات المهمة نشأة المدن التجارية، وهذا ما جعل العديد من مشاهير المؤرخين يهتمون بدراسة المتوسط والعالم المتوسطي، ومن أبرزهم المؤرخ الفرنسي فرنان بروديل.

ونبرر اختيار دراسة المدن التجارية من خلال التاريخ الوسيط تحديدا بأهمية النشاط التجاري، إن لم نقل أنه أهم نشاط اقتصادي في العصر الوسيط، ولذلك نجد دولا قامت على أساس سيطرتها على المدن التجارية المتوسطية، واستفادت من عائدات نشاطها والضرائب المفروضة على تجارها لتجنيد الجيوش وشراء الأسلحة وبناء مؤسسات الدولة.

يرتبط الإطار الزمني للموضوع بالتاريخ الوسيط، وذلك من القرن 5م مع سقوط الدولة الرومانية الغربية إلى غاية القرن 15م مع فتح القسطنطينية وانطلاق حركت الاكتشافات الجغرافية، والتي قلبت موازين المعادلة، وأثرت ليس فحسب في المدن التجارية، بل على الحالة الحضارية والسياسية والاستراتيجية لحوض البحر المتوسط، والذي فقد أهميته وثقله التجاري والحضاري العالمي نسبيا لصالح المحيط الأطلسي وطرق بحرية أخرى وقوى دولية أخرى.

أما بالنسبة للإطار المجالي للموضوع، فهو المجال المتوسطي، والذي كان يعتبر أهم مجال في العالم الوسطية دون منازع، فقد كان مجالا للتعامل التجاري والتأثير الحضاري المتبادل، بل والمواجهة العسكرية والسياسية.

ولدراسة مثل هذا الموضوع لابد من استحضار مجموعة من المناهج، والتي لا تتعارض فيما بينها بقدر ما تتكامل ويعزز بعضها الآخر، وأهمها المنهج التاريخي والمنهج الاستقرائي، وكذا منهج الجغرافيا خاصة الحضرية منها والقائم على وصف التطورات التي عرفتها المدن التجارية بالمجال المتوسطي، ثم تفسيرها بالرجوع لمختلف العوامل التاريخية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية التي أفرزتها، وأخيرا الخروج بأكبر عدد من الخلاصات العلمية التي يمكن تعميمها على المجال المتوسطي ككل.

ثانيا. أهم القضايا التي يطرحها موضوع المدن التجارية المتوسطية الوسيطية

فيما يخص أهم القضايا والنقط التي يطرحها الموضوع، فيمكن إجمالها فيما يلي:

- نشأة المدن وتطورها قضية تحيل إلى ظاهرة التمدين وأنواع المدن خلال التاريخ القديم والوسيط.
- نشأة المدن التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط كان خلال التاريخ القديم، وعرف تطورا خلال التاريخ الوسيط.
- وجود اختلاف بين المدن التجارية لضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية، سواء من حيث النشأة، أو من حيث دور الوساطة التجارية أو من حيث العلاقة بينهما، فقد كان دور مدن الضفة الجنوبية – مثلا - أقوى من نظيرتها في الضفة الشمالية.

- الإطار الجغرافي للمدن التجارية الوسيطية في حوض المتوسط، سواء من حيث الموقع أو من حيث الموضع تميز بالأهمية الاستراتيجية عموما.
- تشابه مورفلوجية المدن التجارية المتوسطية الوسيطية، سواء من حيث التصميم الحضري، أو من حيث المكونات والمرافق بالنسبة للعالم الإسلامي، من جهة وبالنسبة للضفة الشمالية الأوربية من جهة ثانية.
- دراسة موضوع ذي أهمية كبيرة كهذا الموضوع يقتضي عدم الاكتفاء باستحضار المنهج التاريخي والمادة التاريخية فحسب، بل يستوجب، أيضا، الانفتاح على مناهج ومعطيات علوم إنسانية واجتماعية أخرى، لعل أبرزها الجغرافيا خاصة الحضرية والمورفلوجية منها،

إضافة إلى الأركيولوجيا وغيرها، ونفسر ضرورة الانفتاح على هذه العلوم المساعدة بتشعب الموضوع وأهمية واتساع المجال الذي يغطيه البحث.

- اختيار البحر الأبيض المتوسط كمجال للدراسة والعصر الوسيط كإطار زمني للبحث مرجعه لكون المدن التجارية قد عرفت أوج نشاطها وتأثيرها واتساعها خلال الفترة والمجال المذكورين، مستفيدة من دور الوساطة التجارية التي لعبته مدن الضفة الجنوبية – وهي الأهم- كالإسكندرية وصور وعكا وسبتة وغيرها، وبدرجة أقل بعض مدن الضفة الشمالية خاصة الإيطالية منها.

ثالثا. نماذج لأبرز المدن التجارية المتوسطية الوسيطية

نقدم فيما يلي تعريفا بأهم المدن التجارية المعروفة خلال العصر الوسيط في حوض البحر الأبيض المتوسط:

- سبتة: هي عبارة عن شبه جزيرة مطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط. تقع في أقصى الشمال الغربي لإفريقيا، تحيط بِها مياه بحر الأبيض المتوسط من الجهات الثلاث الشمالية والشرقية والجنوبية، وهي مدينة مغربية خاضعة للاحتلال الإسباني حاليا، يفصلها عن إسبانيا مسافة 26 كيلومتر، وهي مجاورة لمنطقة الريف بالمغرب.

- **طنجة:** تتواجد مدينة طنجة أقصى شمال غرب المغرب، بمنطقة التقاء البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، على بعد اثني عشر كيلومترا شرق رأس سبارطيل الذي يشكل المدخل الغربي لمضيق جبل طارق وعلى بعد 10 كيلومترات غرب رأس ملباطا الذي يماثل رأس بالوما جنوب إسبانيا، وهي مدينة لم يحدد بعد تاريخ نشأتها بدقة.

- **الإسكندرية:** مدينة مصرية تقع على الساحل الشمالي المتوسطي لمصر، يعود بناؤها إلى القرن 4 ق.م، وقد لعبت دورا مهما في الوساطة التجارية بين افريقيا وأوربا سواء في العصر القديم أو الوسيط.

- **عكا:** مدينة فلسطينية قديمة، تطل على البحر الأبيض المتوسط، وقد كانت مدينة تجارية بامتياز، حيث لعبت دور الوساطة التجارية بين الشرق الأقصى (خاصة الهند والصين) وأوربا خاصة تجار المدن الإيطالية.

- **صور وصيدا:** مدينتان فينيقيتا الأصل والمنشأ، ويقعان حاليا بلبنان، ولعبتا دورا أساسيا في الوساطة التجارية سواء في التاريخ القديم أو الوسيط.

- **جنوة والبندقية وبيزا:** مدن إيطالية لعبت دورا مهما في التعامل التجاري مع المسلمين، والقيام بدور وساطة تجارية ثانٍ بين المسلمين وباقي الدول الأوربية، وقد كانت هذه المدن الأقل تخلفا في أوربا زمن عصور الظلام أو التاريخ الوسيط بحكم ازدهارها النسبي نتيجة نشاطها التجاري واحتكاكها مع المسلمين، وقد كانت تتمتع هذه المدن باستقلال ذاتي، فهي عبارة عن إمارات مستقلة.

- **القسطنطينية:** العاصمة السياسية للإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية، وهي في الوقت نفسه واحدة من أهم المدن التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط. تعود نشأتها إلى حوالي سنة 658 ق.م إلى أن أعيد بناؤها في القرن 4م على يد الإمبراطور قسطنطين، والذي اتخذها عاصمة، وهي مدينة أوروآسيوية، غير أن قسمها الأهم كان يقع في أوربا، وهي تطل على مضيق البوسفور.

رابعا. نماذج للكتابات حول موضوع المدن التجارية المتوسطية الوسيطية

من خلال استعراض ما كتب عن الموضوع يتبين أنه لم يُتناول إلا لماما، مما يؤكد وجود نقص واضح في هذا الباب، زيادة على تناوله بشكل جزئي فقط، أو المرور عليه مرور الكرام في إطار دراسات وأبحاث شمولية لم تول الموضوع كبير اهتمام من حيث التمحيص والتدقيق، ومن بين الدراسات التي تناولت الموضوع دراسة hilmer kruegar بعنوان " Genoese trade with the north west Africain in the 12 th cent"، وكذا مصادر الجغرافيا التاريخية مثل كتاب البلدان لليعقوبي وصورة الأرض لابن حوقل ومؤلفات ابن خرداذبة وابن الفقيه وابن رسته وكتب الرحلات كرحلة ابن جبير والسبتي وغيرها، إضافة إلى الوثائق الرسمية، وهي وثائق مخطوطة من إنشاء مؤسسات الدول المتوسطية خلال العصر الوسيط.

تضمنت المصادر المخطوطة والمطبوعة إشارات كثيرة حول هذا الموضوع، ومن أبرز هذه المصادر:

- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد، تقويم البلدان.
- ابن جبير، أبو الحسن محمد، رحلة ابن جبير.
- ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض.
- ابن تاويت، محمد، تاريخ سبتة.
- ابن الوردي، أبو حفص عمر الحلبي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب.
- ابن الفقيه، أحمد بن محمد الهمذاني، البلدان.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله، المسالك والممالك.
- البكري، أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب.
- ابن رسته، أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة.
- الشريف الإدريسي، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق.
- الحسن الوزان، وصف افريقيا.
- العمري، ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

- ياقوت الحموي، معجم البلدان.
- الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، كتاب البلدان.
- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار.
- المقدسي، أبو عبد الله البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.
- ابن رشيد السبتي، رحلة ابن رشيد السبتي.

أما عن أهم المراجع والدراسات الحديثة التي تناولت الموضوع سواء بشكل جزئي أو كلي، فنورد قائمة بنماذج منها:

- إسماعيل العربي، العمران والنشاط الاقتصادي في الجزائر في عصر بني حماد، (مقال).
- بان علي محمد البياتي، النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن 3 – 5هـ/ 9 -11م، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بغداد، العراق، 2014.
- الحسين بولقطيب، النشاط الاقتصادي لبعض حواضر المغرب الإسلامي أواخر القرن 5 وبداية 6 الهجريين، أشغال الندوة المنظمة من 24 إلى 26 نونبر 1988، كلية الآداب، ابن مسيك - الدار البيضاء – المغرب.
- لويس أرشيبالد، القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط: 50- 1100هـ، ترجمة أحمد محمد عيسى.
- فاطمة بلهواري، التبادل التجاري بين مدن بلاد المغرب خلال القرن 4 ه/ 10م، (مقال).
- --------، التكامل التجاري بين المدن المغاربية خلال العصر الوسيط.
- فرنان بروديل، تاريخ المتوسط المجال والتاريخ، ترجمة محمد بولعيش.
- عبد الفتاح وهيبة، في جغرافية العمران.
- جرجي زيدان، التمدن الإسلامي.
- الطاهر قدوري، المسالك البحرية في المغرب الوسيط خلال القرنين 5 و6ه/ 11 و12م.
- ترويسكي وآخرون، الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال العصور الوسطى.

- زكي فهمي نعيم، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى.
- عبد العزيز فيلالي، قلعة بني حماد الحاضرة الاقتصادية والثقافية للمغرب الأوسط خلال القرن 5ه/11م، (مقال).
- عمارة علاوة، التطور العمراني والتجاري لمدينة بجاية في العصر الوسيط، (مقال).
- محمد الشريف، سبتة الإسلامية: دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي، عصر الموحدين والمرينيين، دكتوراه السلك الثالث، جامعة تولوز لوميراي الفرنسية، 1987.
- محمد العميم، إشكالية أصل المدينة بشمال افريقيا، أشغال الندوة المنظمة من 24 إلى 26 نونبر 1988، كلية الآداب، ابن مسيك، الدار البيضاء – المغرب، 1988.
- محمد العيناوي، المدن الساحلية في منطقة المغرب العربي الوسيط إلى حدود القرن 4هـ، أشغال الندوة المنظمة من 24 إلى 26 نونبر 1988، كلية الآداب، ابن مسيك - الدار البيضاء - المغرب.
- مصطفى نشاط، جنوة وبلاد المغرب من سنة 609 إلى 759هـ/ 1212 - 1358م، رسالة مرقونة بكلية الآداب، وجدة - المغرب، 1997.
- مصطفى نشاط، قراءة في كتاب سبتة الإسلامية: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، (مقال).
- الندوة العالمية لإحياء المدن التاريخية جنوب المتوسط، البندقية، إيطاليا، 30 أكتوبر 2008.
- يحيى أبو المعاطي، الحواضر الإسلامية في المغرب والأندلس يحيى، الحواضر الإسلامية في المغرب والأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين دراسة تاريخية مقارنة، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1994.

وفيما يخص الكتابات الأجنبية أو غير العربية، فإليك بعض أهم ما كتب في هذا الشأن:

-G. Antoinete, l’economie médiéval.

- J. Beaujeu- Garnier, traité de Géographie urbaine.

- J. Belaron, Les grandes dotes du moyen Age.

- P. Chaunu, l'expansion européenne du 13 ème siècle au 15 éme siècle.
- R. Chevalier, Les voies Romains.
- Philippe Contamine, L'économie médiévale.
- Latrie De Mas, Traitès de Paix et de Commerce et Documents Divers Concernat les Arabes de L'Afrique Septrionals Au Moyen Age.
-J. Des pois, Le destin de l'Afrique du Nord, remarques géographiques.
- H. Ferhat, Le Maroc et la mer.
- R. Fossier, Les sources de l'histoire économique et sociale du Moyen âge occidental.
- G. Jehel, La Méditerranée médiévale de 350 à 1450.
- Jacques Heers, L'occident aux XIV^{e} et XV^{e} siècles aspects économiques et sociaux.
- Hilmar Kruegar, Genoese trade with the north west Africain in the 12 th cent.
- M. Lombard, Arsenaux et voies marine dans la Méditerranée musulmane VII-XI^{e} siècle.
- B. Pegolotti, la pratique du commerce le 14 ème siecle.
- Le conte de Mas latrie, Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou maghreb avec les nations chrétiennes au moyen âge.
- Claudette Vanacker, Géographie éconamique de l'Afrique de nord selon les auteurs arabes du IX^{e} au milieu du XII^{e}.
- J-L dir. Pinol, Histoire de l'Europe urbaine, I- De l'Antiquité au XVIII^{e} siècle.

- Henri Pirenne, cohen Gustave, Henri Focillon, Economic and Social History of Medieval Europe.
- H. Pirenne, médiéval cities: Their Origins and the Revival of Trade.
- Pirenne, cohen, Focillon, Histoire du moyen Age.
- Robert Escalier, Petites villes et villes moyennes dans le monde arabe (article).

خاتمة

يظل موضوع المدن التجارية المتوسطية الوسيطية لم ينل ما يكفي من دراسة وبحث، لاسيما وأننا نعلم أن هذه المدن مثلت المراكز الاقتصادية الأكثر أهمية خلال العصر الوسيط، كما أُعتبرت أحد أهم مقومات قيام الدول الوسيطية، لهذا كان السيطرة عليها محل اهتمام أي دولة ناشئة أو صاعدة، وعلى ذلك فقد لعبت هذه المدن دورا أساسيا في صناعة وتحريك الأحداث التي عرفها المجال المتوسطي، وتعد بذلك مفتاحا مهما لمقاربة وفهم تاريخ هذا المجال الاستراتيجي إبان الفترة الوسيطية.